المركز العربي لدراسات سورية المعاصرة
The Arab Centre for Contemporary Syria Studies

ورشة

كيف يُكتَب تاريخ سورية؟

كلمة افتتاحية

محمد حرب فرزات

كلمة افتتاحية

أيار/مايو 2026

المحتويات

نبذة تعريفيّة بالباحث	1
افتتاحية	2
مقتضيات البحث العلمي في التاريخ	4
حول كتابة تاريخ سورية	6
حقائق تاريخية عن سورية	8
فرنسا في سوريا العربية 1918-1946	10
خاتمة	16

نبذة تعريفيّة بالباحث

محمد حرب فرزات

مؤرخ سوري، ولد عام 1932 في دمشق، وهو من قدامى خريجي قسم التاريخ في جامعة دمشق عام 1955. تميز بإنتاجه البحثي المبكر، منذ كتابه المرجعي الأول الحياة الحزبية في سورية (1955)، وبكتبه الأخرى في التاريخ الحضاري القديم، وبترجماته المستمرة حتى اليوم، ومن أبرزها مساهمته في ترجمة كتاب أديب باغ (الجولان: دراسة في الجغرافيا الإقليمية).

افتتاحية

في إطار دراسة ما قد مضى والبحث فيه، لا نستطيع -بحكم الواقع- أن نتغافل عن التاريخ الحاضر والجاري والآني، بتقلباته الخطرة وتأثيراتها في حياة الأجيال القادمة في العالم، حيث نعاصر أحداثًا تخرق الزّمان وتفجأ الأذهان وتستقرّ في الذاكرة إلى حين كتابة تاريخ جديد. وهنا لنا أن نتساءل: ما التاريخ؟ وما تاريخنا وتاريخ بلادنا العربية الشامية السورية؟ وما التاريخ الذي نرمي إلى كتابته؟ ولماذا نكتب التاريخ، ونحن نعيش في عالم الحاضر المتغير وأنظارنا تتجه إلى بناء مستقبل مأمول؟

إننا نكتب التاريخ لمعرفة الذات ولتكوين رؤية مشتركة بذاكرة جامعة وهوية وطنية سورية، ولتمكين الانتماء إلى أرض الوطن كلّه بيت الآباء والأجداد، وإلى الشعب الموحّد العتيد بكل أجياله عبر التاريخ، وإلى الدولة السورية حصن المواطنين ووطنهم الحرّ المنيع، وإلى الإنسانية الرفيعة المتمكنة بقيم الإيمان بربّ الناس والعلم والمعرفة والحق والعدل والمروءة والكرامة المصونة والعمل الصالح. ومن ثم علينا أن ندرس التاريخ لكي نفهمه ونعيَه، حتى نعرف بلادنا أكثر، بأسمائها وبلسانها العربي العريق بلغات تفرّعت وتكوّنت منه، وكتابات ونقوش ما تزال شاهدة عليه عبر العصور.

ولكن أيّ تاريخٍ نقصد، ونحن نعرف أن التاريخ متعدد الروايات واللغات والثقافات والعقليات؟ ومع الإقرار بصعوبة المسألة ومشقة الإجابة عنها، يسرّني في هذا اللقاء تبادل الرأي والتحدث إليكم، في «التاريخ الذي عرفته»، اتباعًا لقول الكاتب المؤرخ **هيكاتيوس الهلّيني** أستاذ هيرودوت أول أعلام المؤرخين (القرن الخامس قبل الميلاد): «أنا أكتب التاريخ كما عرفتُه وكما خبرتُه». وهو في حقيقة الأمر محصّلة معرفة وذاكرة وعمل من جيلٍ اجتهد وأسهم في كتابة التاريخ وتعليمه ونشره. ونحن هنا نجتمع للعمل معًا على دراسة ما قد مضى وفهمه والإفادة منه، وللنظر في تاريخنا الحاضر المعاصر، كما نشاهد ونرى، ولنستطلع المستقبل المنشود برؤية مشتركة لذاكرة وطنية مشتركة وجامعة لا تُقصي أحدًا ولا تفرّق ولا تميّز، رؤية تستمدّ نورها من بيت الآباء والأجداد الراحلين الذين أسسوا وبنوا وشقّوا الطريق نحو الحرية والاستقلال والوحدة الوطنية، ورفعوا علم بلاد الشام التاريخية، وجعلوا نجومه الحمراء تتلألأ في سماء سورية كلّها.

إننا نتطلّع إلى رصد وكتابة تاريخٍ لسورية، بقيمها السامية وبثراء التراث الشعبي المتعدد المتواتر عبر الأجيال في كل عصور التاريخ. وليس هذا هدفًا سهل المنال، ففي رأس كل باحث ذاكرة وتاريخ. والتاريخ أصعبُ العلوم الإنسانية وأشدها خطرًا على تكوين العقليات، كما يرى الكاتب الفرنسي بول فاليري. لكن معرفة تاريخ الإنسان والقضايا الإنسانية هي مقدّمة الطريق لحلّ المشكلات التي تُقلق الفكر الإنساني.

إن تاريخ سورية مجال علمي عريق ومشرّف في التاريخ الحضاري للإنسانية كلّها، وللسوريين جميعًا أن يعتزوا بالانتماء إلى أرض الوطن السوري التي تحمل اسمًا واحدًا، هو أقدم اسم لأرض دولة بين دول العالم. ومُدن بلاد الشام التاريخية هي أقدم المدن العامرة في التاريخ، ومنها دمشق العاصمة وحلب وحماة وأريحا والقدس، قلب فلسطين التاريخية، وهي مدينة أورشليم، باسمها باللغة المشرقية الشامية القديمة الكنعانية التي تضارع الأسماء العربية، ويعني القمرَ عند اكتماله فيكون سالمًا سليمًا. وقد ذكره ابن منظور في (لسان العرب)، في مادة (أور)، إذ روى بيت الشاعر الأعشى: (وقَدْ طُفْتُ للمالِ آفاقَهُ: ... عُمانَ فَحِمْصَ فَأُورَى شَلَمْ)، فقال: «وَالمَشْهُورُ أُورى شَلَّم، بِالتَّشْدِيدِ، فَخَفَّفَهُ لِلضَّرُورَةِ، وَهُوَ اسْمُ بَيْتِ المَقْدِسِ؛ وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ بِالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ وَكَسَرَ اللَّامَ، كأَنه عرّبه، وقال: مَعْنَاهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ بَيْتُ السَّلَامِ».

إننا ندرس التاريخ، ونبحث في طرق كتابته في الماضي والحاضر، بعقليات مختلفة وبأقلام متعددة الألوان والغايات، من مستطلعين غرباء لخدمة سياسات بلادهم، أو باحثين مستكشفين مستشرقين دارسين لتاريخ الحضارات وآثارها وتراثها المكتوب، ويُكتب التاريخ أيضًا من الداخل بنظرات مختلفة، وقد تكّون تاريخ سورية الحديثة والمعاصرة مع جغرافيتها التاريخية المتغيرة بتقلّب عصور التاريخ على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وكُتب بنظرات ثقافية وسياسية مختلفة. فكيف ننظر إلى تاريخنا وتاريخ بلادنا؟ من أيّ موقعٍ وبأيّ منظارٍ؟ من الخارج، أم من الداخل، حيث نرصد حراك الشعب والمجتمعات؟

التاريخ في نهاية المطاف خلاصة نظر وتحقيق، على رأي المعلّم ابن خلدون، ومحصّلة درس وبحث علمي. وبوصلته استهداف حقيقة ما وقع في الماضي الإنساني، لفهم أصول الحاضر واستطلاع المستقبل القادم. وعلى الرغم من استغراقنا في الحاضر ومتطلباته الضاغطة التي تتحكم في طريقة حياتنا، فإننا لا نستطيع تجاهلَ التاريخ بما فيه من تجارب وخبرات وعبر، ولا نستطيع تناسي الذاكرة والهوية الاجتماعية والثقافية للمجتمعات في تاريخ الدول، عند البحث في تاريخ الدول وشعوبها ونُظمها التي تديرها وتسيّرها. فالتاريخ الحقيقي -كما يقول المؤرخ الفرنسي ف. بروديل F.Braudel في كتاباته- يُدرَس بكل زمانه الطويل في عصوره القديمة والمتوسطة والحديثة والمعاصرة الجارية، ذلك بأن العصور متداخلة. ولا يمكن التنازل عن أزمنة من التاريخ، لما في ذلك من إضعاف للانتماء والحقوق التاريخية.

والتاريخ إسناد للحقيقة، وحجّة للبرهان في الجدل الفقهي والعلمي. وهذا ما يُلزم الشعوب بالالتزام به للحفاظ على حقوقها في أوطانها بين الشعوب. وإن دائرة التاريخ الحضاري أوسَعُ من الحدود السياسية للدولة على الأرض. فسورية في تاريخ الحضارات المشرقية القديمة والهلنستية والعربية الإسلامية أوسَعُ مساحةً وامتدادًا وانتشارًا من تاريخ الدولة السورية في التاريخ المعاصر.

مقتضيات البحث العلمي في التاريخ

إذا كان هدف البحث العلمي في التاريخ هو معرفة الماضي على حقيقته، كما وقع، فهو عند الباحثين العلميين عمليةُ جمع ودراسة وتحليل مستمر وتدقيق موثّق للماضي. وإنّ من مقتضيات البحث مراجعة ما كُتب من قبل والتفكير في ما يليه. ولذا فإن من الضروري تعميق البحث التاريخي، والتوسّع في مجاله الموضوعي وفي المدى الزمني لتكوين الرؤية التاريخية الصحيحة الشاملة، لتكون أداة مفيدة ودليلًا في التعليم، ولاتخاذ القرار السياسي الاستراتيجي المفيد، ولاستشراف المستقبل وللتخطيط للبناء والتنمية المجدية. ونرى أن معرفة الجغرافية تأتي قبل كتابة التاريخ وهي ملازمة له. وفي هذا المجال، تكون الجغرافيا التاريخية موضوعًا أساسيًا لقراءة التاريخ وفهمه، ودراسة تطوّر الخريطة البشرية الاقتصادية الاجتماعية السياسية، والتحضير للتنمية والدفاع الوطني، وترسيخ الهوية الوطنية والانتماء إلى الجمهورية على أرض البلاد كلها. ولا تنفصل الجغرافيا عن التاريخ، لأن التاريخ كتاب من لوحات وخرائط جغرافية متتابعة ومتواصلة.

ونودّ في هذا السياق التذكيرَ بتجارب سابقة لكتابة تاريخ سورية، في دورات سبقت من تاريخ الدولة السورية في تاريخنا المعاصر، منذ الخروج من الدولة العثمانية وإعلان الاستقلال في الحرب العالمية الأولى (1918). وسنحاول أيضًا التعريفَ بجهود الجيل السابق من المؤرخين السوريين في كتابة تاريخ سورية، والبحث في إشكالياته المثيرة للجدل التي ينبغي أن تدفع الى العمل العلمي لتجديد كتابة تاريخ حقيقي صادق، بروح علمية عالية الأهداف وبمنهجية مسؤولة للتمكين من الانتماء الى وطن واحد ودولة موحدة.

إن سورية الحديثة المعاصرة خرجت إلى العالم من صراع وحروب طوال قرن (1918-2024)، بعد ثلاثة حروب عالمية وصراعات دولية ونزاعات إقليمية، وإننا إذ نشهد أمامنا التحولات الجسام، التي تمرّ بها بلادنا سورية والبلاد العربية الأخرى وسائر بلاد العالم، لَنتطلّع إلى المستقبل على أمل الخروج من دوائر الشدة المقلقة، والظفر بوحدة أرض الوطن وسيادته وبوحدة الشعب كله. وإننا بحاجة إلى التلاقي في البيت الكبير كلّه بجدارة واعتزاز، بما يليق بتاريخ سورية العريق، وبإرث حضارتها وثقافاتها وقيمها السامية، وبوعي رجال ونساء منها في تاريخها الحافل، وبحكمتهم وقدرتهم على رأب الصدوع وجمع الصفوف وتوحيد الكلمة الجامعة التي صدرت في دساتير مكتوبة ومعلنة، تعبّر عن التلاقي والتوافق ووحدة الانتماء، على أسس رؤية مشتركة لما مضى من تاريخ البلاد المعاصر خلال أكثر من قرن، لترسيخ هويتها الوطنية الجامعة، وتعزيز ذاكرتها المشرفة بالتعليم والإعلام، وتمكين الأجيال من الانتماء إلى سورية، أرض السوريين كلهم، ولكتابة فصول إضافية لتاريخ وطن متحد بإرادة أبنائه وعقولهم، ولجمع شعب سورية تحت راية موحدة، راية الجمهورية العربية السورية، التي تولد من جديد باستحقاق، بعد معاناتها ومقاساتها في ظروف الشدّة ومآسي الحرب والدمار، لتسترد موقعها بين الدول في العالم.

وأمام أخطار عدّة ومصادر مريبة للتأريخ المطروح على الباحثين، علينا أن نكتب تاريخنا بأنفسنا، إننا بحاجة إلى أن نكتشف معًا وأن نبني معًا، بأنفسنا ولأنفسنا، المقدمات المتعددة المؤسسة لتاريخنا المشترك الذي يمثّل لنا ذاكـرة مشتركة ضمن بيتنا، الوطن الواحد. ونحن في نهاية المطاف من البشر خلائق الخالق على الأرض من الإنسانية متعددة الثقافات الخاصة والألوان. وما علينا لتحقيق هذا الهدف إلا العمل معًا، بصدق وعلم وعقلانية ومنهجية وإخلاص.

وإننا إذ نسائل أنفسنا اليوم عن أنفسنا وعن هويتنا: من نحن وما تاريخنا؟ ونعيد فهم مصطلحاتنا والتعبير عنها بما يجمعنا: ما الأمة التي تضمّ شعوبنا ومجتمعاتنا العربية بكل تراثها العقدي والثقافي؟ ما الثقافة والحضارة والتاريخ واللغة والنظم والمؤسسات؟ وما معنى التواصل الحضاري والتكامل الثقافي والاحتواء الاجتماعي؟ فإنما نفعل ذلك لترسيخ الهوية المشتركة بتجديد الروابط والمفاهيم المشتركة. ولنعرف كيف يمكن الوصـول إلى هوية مشتركة، يمكن أن تصاغ في ميثاق وطني ودستور يبقى دليلًا على الطريق. ولا يكون ذلك إلا بالابتعاد عن عوامل التفرق والانقسام.

إن لسورية رصيدًا ملموسًا في تاريخها الثقافي والدستوري، يجب أن ننظر فيه للوصول إلى رؤى جامعة: رصيد مشترك في دستورها الأول 1920 دستور بلاد الشام كلها، ورصيد في دستوري الجمهوريتين الأولى والثانية، أولهما في 1928، للتخلّص من الانتداب الفرنسي وقد جرى تعديله بإلغاء المادة الانتدابية المضافة 116في 1943 في الحكم الوطني، وثانيهما في دستور 1950 بعد الجـلاء.

وفي المرحلة التاريخية الحاضرة الراهنة التي تستردّ فيها الجمهورية العربية السورية حضورها السياسي على الساحة الدولية، بعد صراع مرير على الصعيدَين الداخلي والإقليمي، بكل تطوراته القاسية وتحولاته على المستوى الدولي؛ يجد المؤرخون السوريون الباحثون في التاريخ المعاصر أنفسَهم أمامَ واجب علمي، يستدعي تضافر الجهود لكتابة تاريخ سورية الدولة، بكل أسمائها في عصور التاريخ الماضية، عندما كانت أمورو وكنعان وآرام، وهي سوريا والشام، وفي ظروف تأسيس الجمهورية وانتزاع الاعتراف الدولي بالاستقلال، منذ المحاولة الأولى للظهور على مسرح التاريخ المعاصر إبان الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، ثم في مرحلة الصراع مع الاحتلال ومع نظام الانتداب الفرنسي-البريطاني على بلاد الشام: (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) والعراق. وقد انتهت هذه الفترة بالاعتراف بإعلان استقلال جمهوريتي سورية ولبنان، وبتقسيم فلسطين في 1947 بقرار دولي صدر عن الأمم المتحدة (29 تشرين الثاني 1947)، وبتأسيس المملكة الأردنية الهاشمية في 1949. وهي مرحلة بالغة الأهمية، أعقبتها الحرب العربية-الإسرائيلية الأولى في الصراع على فلسـطين (1947-1949)، ولحقتها تحولات وانقلابات عسكرية وبيانات دولية، رسمت خريطة المشرق العربي لعقود، وشكّلت ظروفًا إقليمية متغيرة وغير مستقرة، أثّرت في تكوين صورة سورية المعاصرة في العالم.

حول كتابة تاريخ سورية

كُتِبَ التاريخ السوري بوجهات نظر مختلفة، بأيدي مؤرخين غربيين، وبأيدي مؤرخين سوريين. وقد يُلاحظ أن أوساطًا خارجية عملت في عصور متلاحقة، وذلك منذ «الامتيازات» التي حصل عليها ملك فرنسا فرانسوا الأول 1494-1547، من السلطان العثماني، بشأن رعاية الأماكن الدينية المسيحية، إذ كان ذلك سبيلًا لدخول بعثات تبشيرية لنشر تعليم خاص لخدمة سياسات فرنسا الاستعمارية التوسعية على البحر المتوسط، وبابًا مفتوحًا للمغامرين. ثم رحلة إرنست رينان Ernest Renan، (1823 – 1892) في القرن التاسع عشر، بعد حملة نابوليون الثالث، Napoléon Bonaparte، (1798-1870) على الساحل السوري-اللبناني.

ومن المعروف أن السيطرة على التعليم كانت من أهداف حملة نابليون على مصر وسورية 1798-1801، بالإضافة إلى الكشوف العلمية الجغرافية التاريخية-اللغوية والأثرية التي أدّت إلى الكشف عن الحضارة المصرية القديمة، ومهّدت الطريق لنهضة مصر وسورية التعليمية بعد نابليون، في عصر محمد علي مؤسس الدولة المصرية الحديثة. لكن نتائج هذه الكشوف والبحوث أثرت في تكوين تيارات ثقافية متضاربة في كتابة تاريخ سورية فيما بعد زمن الانتداب.

إن مراجعة قراءة كتابة التاريخ، على أيدي المستكشفين المستشرقين الأوروبيين، تكشف عن اهتمام خاص بتاريخ سورية، لإدراكهم أهميتها في رسم السياسات على الساحة الدولية في عالم حوض البحر الابيض المتوسط. فمن سواحل سورية، امتد العالم العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي على كل حوض البحر الأبيض المتوسط، واقتحم أوروبا في إيبريا وفرنسا وإيطاليا. وعلى أرض سورية، خاض الغرب المسيحي الأوروبي، في العصور الوسطى الأوروبية، صراعًا طويلًا لاسترداد ما فقده على أيدي الدولة العربية الأموية في بلاد الشام، في صراعها التاريخي الملحمي الطويل مع بلاد الروم والإمبراطورية البيزنطية وأوروبا في العصور الوسطى. وهم يدركون أن الصراع على المتوسط مستمرّ ما بين القوى القائمة على الساحلين الشمالي والجنوبي.

لقد عمل الغرب الأوروبي، منذ القرن التاسع عشر، على تحجيم سورية، جغرافيًا وتاريخيًا وسياسيًا، لمنع نهضتها ولصدّ سعيها لتأسيس دولة عربية حديثة على حوض البحر الأبيض المتوسط، يمكن أن تهّدد المشاريع الاستعمارية والاستيطانية الأوروبية التي كان يخطط لتنفيذها في أوروبا، بعد إفشال المشروع المصري، بقيادة محمد علي وابنه القائد إبراهيم، لاسترداد دور مصر بتوحيد مصر والشام، وتأسيس سلطنة جديدة عربية مشرقية على الحوض الشرقي للمتوسط. إنهم يعرفون من التاريخ أن نهضة العالم العربي-الإسلامي تقوم باتحاد ما بين دول المشرق ووادي النيل. وقد عرفنا ما أعقب مغامرة محمد علي باشا، من رسم سياسات أوروبية صارمة تحول دون توحيد المشرق القديم، وهو ما نجده في سياسة اللورد بالمرستون، 3rd Viscount Palmerston، (1784-1865)

رئيس الوزراء البريطاني في أواسط القرن التاسع عشر (1855-1865)، الذي أوصى بالعمل على منع أيّ اتصال جغرافي أو سياسي بين الشام ومصر، وبالسّعي لتعزيز الملاحة وطرق المواصلات بحرًا، ما بين أوروبا والهند والشرق الأقصى،

وتلا ذلك تنظيمُ الهجرة الدينية اليهودية الأوروبية الاستيطانية إلى بيت المقدس وفلسطين، بمساعي جمعيات خيرية ومصارف ورجال أعمال مغامرين، قبل أن يتبلور المشروع السياسي الصهيوني الاستعماري الاستيطاني بقيادة هرتزل Theodor Herzl، في مؤتمر بال بسويسرا 1897، لتأسيس دولة يهودية لخلق واقع ديموغرافي- سياسي، يشطر العالم العربي ويسهّل سعي دول أوروبا للسيطرة عليه. وتلاه أيضًا شقّ قناة السويس التي وصلت بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر المؤدّي إلى بحر العرب، والسيطرة على طريق الملاحة بين أوروبا والهند والشرق الأقصى. وافتتحت رسميًا في 25/4/1859. وهو ما جعل المشرق العربي والعالم الإسلامي رهينة بمقدرات سياسات الدول الأوروبية طوال قرن.

حقائق تاريخية عن سورية

كشفت البحوث الأثرية والتاريخية عن شخصيّة مصر الفرعونية الإمبراطورية المركزية من جهة، وعن شخصية سورية الخاصة المنفتحة على العالم من جهة أخرى، وعن دورهما في مسار التاريخ القديم، من حيث قدرة الأجيال الماضية فيها على التكيّف مع تغيّر الخرائط الدولية على البحر المتوسط، والتعامل مع القوى الدولية المتغلبة. وهي خاصية في التاريخ السوري، يمكن تحرّي مظاهرها منذ عصر الملك شاروكين الأكادي (صرغون)، في الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، إذ كانت شعوب سورية القديمة حينئذ قادرةً على توظيف مؤهلاتها وقدراتها في المواقع واللغة والقوافل والمواصلات والثروات والتجارة والملاحة والثقافة، وفي التعامل مع القوى الجديدة ومشاركتها في احتواء التحولات الجارية. وفي هذا الصدد، يمكن أن نسجّل الحقائق التاريخية التالية:

1. في الألف الأول قبل الميلاد، تمكّنت الدول الآرامية والكنعانية في سورية ولبنان وفلسطين من الاتحاد، لحماية مصالحها على أرض (آرام كُلاّ = كلها)، كما جاء في نصوص موقع السفيرة، من القرن الثامن قبل الميلاد. وكانت اللغة الآرامية لغة سوريا وأشور، وهي اللغة الرسمية للإمبراطورية الفارسية في ولاياتها، ولغة التعامل التجاري.

2. في القرن الرابع قبل الميلاد، ورثت سوريا معظم إمبراطورية الإسكندر المقدوني في قارة آسيا، من البحر المتوسط إلى قندهار في أفغانستان، بعد أن أسّس أحد قادة جيوش الإسكندر سلوقس المقدوني المملكةَ السوريةَ السلوقية (312-63 ق. م)، وعاصمتها مدينة أنطاكية على نهر العاصي، وتقويمها يبدأ من سنة 312 ق. م.

3. تحدّت الأوغستا المعظمة زنوبيا Septima Zenobia (ملكة تدمر السورية في القرن الثالث للميلاد)، الإمبراطوريةَ الرومانيةَ، وأعلنت نفسها إمبراطورة المشرق (بمقابل إمبراطور روما). وهو أخطر تحدٍّ تعرّضت له الإمبراطورية الرومانية في تاريخها، إذ لم تُقدِم على مثله أي ولاية إمبراطورية أخرى، حتى ظهور الجرمان في القرن الخامس.

4. تحدّت سوريا التراثَ الفلسفي الكلاسيكي الهلّيني فكريًا، والوثنية الشرقية والتعصّب الديني اليهودي، برسالة المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام وواجهت أحبار اليهود المحرفين ونقص الميثاق الإلهي، وبتأسيس الكنيسة في أنطاكية وفي الرّها، وبكتابة الإنجيل بالآرامية الفلسطينية (آرامية الجليل والسوريانية التي انتشرت في سوريا كلها)، وبالتبشير برسالة المسيح في مصر ووادي النيل والحبشة (إثيوبيا) وسواحل الهند في مالابار.

5. بالمسيحية الإغريقية، تكّونت في شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط ثقافة منفصلة عن الثقافة الرومانية اللاتينية. وأدّى ذلك إلى انقسام الإمبراطورية الرومانية في 399 م قسمين: إمبراطورية الروم البيزنطية، وإمبراطورية روما الغربية، وهو ما أدى إلى انشطار مذهبي في المسيحية، بقيادتين: الكنيسة المسيحية البابوية في روما وهي الكاثوليكية، والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في إسطنبول وأنطاكية، ثم في أورشلم – القدس والإسكندرية وأثيوبيا وأرمينيا. وهكذا كانت سوريا عاملًا في تشكيل العالم القديم، قبل ظهور الإسلام.

6. في عهد الإسلام، تمكّن البيت الأموي العربي في الشام من وراثة عصر الخلافة الراشدة في المدينة والكوفة، ومن تأسيس نظام دولة في خلافة وراثية في أسرة حاكمة في دمشق، انتزعت السيادةَ على البحر الأبيض المتوسط، وأسّست حكمًا عربيًا بنظام شريعة إسلامية في الأندلس وبعمران شامي، وفتحت أبواب أوروبا للغة العربية والحضارة الإسلامية الإنسانية، ومهّدت الطريق للحركة الثقافية الإنسانية في الغرب ولنهضة أوروبا الحديثة.

7. في عهود السلاطين الأيوبيين والمماليك، وهم قادة الجيوش في دولة الخلافة العباسية في العراق ثم مصر طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، خاضت بلاد الشام صراعًا تاريخيًا مع ممالك أوروبا، فكانت طريقًا للتواصل الثقافي والتفاعل الاقتصادي الحضاري بعد ذلك حتى القرن السادس عشر.

8. بعد سقوط دولة المماليك وانتقال السيادة في العالم الإسلامي، من القاهرة ودمشق إلى السلطنة العثمانية بعد معركتي مرج دابق في الشام 1516 والريدانية في مصر 1517، بقيت مدن سوريا ومدن المشرق العربي حافظةً لخزائن الآداب واللغة العربية، وحفلت بمدارس الحديث والفقه طوال أربعة قرون، من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، في الشام ودمشق والقدس وحلب.

9. منذ القرن التاسع عشر، تطورت وتعاظمت حركات المطالبة بالإصلاح الإداري وبالدستور وحرية التعبير في سورية. وتمكن السوريون من التعبير عن أنفسهم ومطالبهم الإدارية والسياسية بالإصلاح والاستقلال عن حكومة الاتحاد والترقي الاستبدادية العسكرية في تركيا العثمانية، في مطلع القرن العشرين حتى إعلان الدولة السورية في بلاد الشام في 1918.

فرنسا في سوريا العربية 1918-1946

في إبان الانتداب الفرنسي، تعاقبت أحداث كثيرة على سورية، كان لها دور كبير في رسم ملامح مستقبلها، ويمكن أن نقدّم أهم تلك الأحداث باختصار، وهي كالآتي:

العام	أهمّ الأحداث
1918	انسحاب القوات التركية، ودخول أللنبي الجنرال البريطاني Edmund Henry Hynman Allenby (1861-1936) فلسطين واحتلال القدس، ودخول القوات البريطانية بغداد؛ إعلان حكومة وطنية في دمشق، ورفع العلم العربي على دار البلدية بدمشق، وتعيين الأمير سعيد عبد القادر الجزائري رئيسًا لسلطة فعلية قبل دخول فيصل بن الحسين.
تشرين الأول 1918	دخول القوات العربية بقيادة فيصل بن الحسين سوريا ومدينة دمشق، وتعيين القائد رضا الركابي (من دمشق) حاكمًا عسكريًا.
حزيران 1919	انتخاب أول مؤتمر سوري عام، (مندوبون من سوريا، بلاد الشام كلّها) بالانتخاب بموجب قانون الانتخابات العثماني السائد سابقًا، ونزول الفرنسيين على الساحل، تشكل المقاومة.
آب 1919	استطلاع رأي الشعب السوري، وتقرير لجنة كينغ-كراين [King-Crane] من اللجنة الدولية، وإهمال التقرير في الولايات المتحدة، وتأييد تصريح بلفور البريطاني، وإعلان الاستقلال – الوحدة؛ رفض وعد بلفور البريطاني؛ إعلان استقلال العراق من دمشق تعبيرًا عن وحدة القضية العربية.
تشرين الأول 1919	تعيين الجنرال هنري غورو Henri Joseph Eugène Gouraud قائدًا عامًا في ما دعي فرنسيًا بدول المشرق.

8 آذار 1920	المؤتمر السوري العام يعلن الأمير فيصل ملكًا دستوريًا على سوريا (المملكة السورية العربية)، وعلي رضا الركابي رئيسًا للحكومة؛ أول دستور سوري 1920 آذار.
أيار1920	حكومة دفاع وطني برئاسة رئيس المؤتمر السوري هاشم الأتاسي، من أعضائها الشهبندر ويوسف العظمة وساطع الحصري وفارس الخوري ويوسف الحكيم ورضا الصلح؛ تعيين محمد رشيد رضا رئيسًا للمؤتمر السوري العام.
24 تموز 1920	معركة ميسلون الفاصلة؛ ثورة في العراق والفرات ضدّ الإنكليز.
25 تموز 1920	دخول الجيش الفرنسي دمشق، خروج الملك مرغمًا إلى حيفا – فلسطين باتجاه مصر. حيث لم يستطع الاحتفاظ بعرشه في سوريا، وأقرّت بريطانيا اختياره ملكًا على العراق. واختيار أخيه الأمير عبد الله بن الحسين أميرًا على سوريا الجنوبية شرقي الأردن.

قرارات الاحتلال أدت إلى جملة من الأحداث والتطورات، نذكر منها انسحاب رئيس الحكومة هاشم الأتاسي إلى حمص، وانسحاب أعضاء المؤتمر السوري إلى مناطقهم للمقاومة، والتحاق الركابي وآخرين بالأمير عبد الله في شرق الأردن، وحلّ الجيش وجمع السلاح وحلّ المؤتمر السوري، وإلغاء الدستور والغاء العلم الوطني، ورفع علم الاحتلال الفرنسي وعلم مزيّف إلى جانبه، وفرض الحكم العسكري العرفي، واحتلال قصر الملك ودار الحكومة بدمشق، وجمع الذهب والسلاح، وتحدي مشاعر الغضب السوري بزيارة الجنرال غورو والضباط الفرنسيين ضريح القائد صلاح الدين، وملاحقة الثائرين، واندلاع الثورات في أنحاء البلاد.

ثم توالت التطورات كما يلي: تصرّفت حكومة الجمهورية الفرنسية بالدولة السورية وبنظام الحكم وبأراضيها وحدودها، بعدوانية استعمارية، بعد انهيار نظام الحكم في الدولة السورية ودخول الجيش الفرنسي دمشق، في 25 تموز/ يوليو، ضمن سياق حدث تاريخي كبير بعد دخول البريطانيين القدس وبغداد، سُجلت أصداؤه في الصحافة الأوروبية بنشوة وتفاخر. ووجدتُ فيه ردًّا على دور سوريا في الصراع على المتوسط في العصرين الأموي والأيوبي-المملوكي. وقد اتخذ الجنرال غورو -بصفته قائد الاحتلال العسكري المفوض الفرنسي بإدارة نظام الانتداب الدولي الذي أقره المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو 1920 ومجلس جمعية الأمم المتحدة بجنيف 1922- قرارات جائرة، أدّت الى تغير خريطة سورية التاريخية-الجغرافية، وذلك بإعلان فصل ما دُعي لبنان الكبير (1920)، وضمّ مناطق من ولاية بيروت وسنجق طرابلس ومن بعلبك في البقاع، إلى أراضي متصرفية جبل لبنان القائمة سابقًا، والتنازل عن مناطق كيليكيا في سوريا الشمالية (1919) للجمهورية التركية، وتقسيم ما تبقى من سوريا الموضوعة بعهدة الانتداب الفرنسي إلى دولتي دمشق وحلب، وإلى حكومات

محلية في اللاذقية على الساحل والسويداء في جبل الدروز وفي دير الزور على الفرات. وتلا ذلك إصدار المفوض الفرنسي بعدئذ القرار الجمهوري 106 ل. ر (LR 106) بمنح سلطات إدارية تنفيذية وقضائية لشيوخ العشائر السورية في مناطقهم، وحرية التنقل بين منازلهم في مواسم الترحال عبر الحدود مع الأردن والعراق. وهو قانون ظل ساري المفعول حتى عام 1946، وجرت مناقشته في المجلس النيابي السوري في جلسة صاخبة عام 1947، حدث فيها صدام خطير، بين النائبَين أكرم الحوراني والشيخ طراد الملحم من شيوخ عشائر البادية الشامية.

قاوم الشعب السوري، في جميع مناطق البلاد المحتلة، قوات الاحتلال ونظام الانتداب بالثورات المتفرقة، بقيادات وطنية في الساحل وعكار وحوران والجولان وجبل الدروز وفي جبل الشيخ (في جباتا) وحاصبيا وراشيا، وفي حلب وأنطاكية، وفي وديان وجبال وادي نهر العاصي وحماة وحمص ووادي الفرات. وكان ذلك بالتوازي مع أحداث مماثلة ضد الانتداب البريطاني في فلسطين والعراق. وقد تذمّر القائد الفرنسي الجنرال ويغاند Maxime Weygand (المفوّض بإدارة الانتداب الدولي الفرنسي في سوريا ولبنان) من السّوريين الذين يقومون بتنظيم اضطرابات متوالية ضد القوات الفرنسية المحتلة، واتهم حكومة دمشق بأن لديها نيّات توسعية، لمطالبة الوطنيين بتوحيد البلاد. وحاول إرضاء المطالب الوطنية بتوحيد إدارتي دمشق وحلب، وإعلان نظام آخر باسم الدولة السورية، محل الاتحاد السوري، مع الإبقاء على ارتباط لواء الإسكندرون بحلب (1922)، وعُيّن صبحي بركات رئيسًا للدولة، وهو من مدينة أنطاكية. إلا أن المستشارين العسكريين والأمنيين الفرنسيين استمرّوا في تحريك الاضطرابات واختلاق العقبات في وجه الإدارة السورية، إلى أن تطورت ونشبت الثورة السورية العامة، ضدّ الاحتلال الفرنسي، بقيادة دكتور عبد الرحمن الشهبندر وسلطان باشا الأطرش (تطورت مقدماتها وأحداثها ما بين 1921-1927)، واستمرت حتى أذعنت الدولة الفرنسية، وقبلت بالدعوة إلى انتخابات عامة لمجلس تأسيسي لسن دستور للبلاد في 1928.

ثم توالى التخبّط في الاعتراف باستقلال سوريا نحو ربع قرن حتى 1946، كما يبيّن الشكل التالي:

التاريخ	الأحداث
1922	الدولة السورية برئاسة صبحي بركات، ثم أحمد نامي بك حتى **1928**؛ الاعتراف بالدستور الذي أقرّه المجلس التأسيسي وهو ينصّ لأول مرة على النظام الجمهوري في سورية، لكن المفوض الأعلى الفرنسي ألغاه ثم أصدره معدلًا بإضافة المادة 116 التي تقيّد صلاحيات رئيس الجمهورية بموافقة المفوض السامي للجمهورية الفرنسية المكلفة بإدارة الانتداب، وبقي هذا الإجراء معمولًا به من 1932-1943، وانتخب على هذا الأساس أول رئيس للجمهورية، محمد علي بن أحمد عزت باشا العابد. ثم عيّن بعده عطا الأيوبي رئيسًا للدولة والحكومة، ثم أجريت انتخابات نيابية.

1936- 1939	انتُخب هاشم الأتاسي رئيسًا، وأجرى مفاوضات مع الحكومة الفرنسية باسم الجمهورية السورية لعقد معاهدة تحالف، لكن المفاوضات لم تصل إلى اتفاق، فاستقال رئيس الجمهورية في 1939.
1939- 1940	ألغي الدستور، وفُرض حكم عسكري مباشر؛ عُيّن الجنرال كاترو Georg-es Catroux مندوبًا عامًا لحكومة فرنسا الحرة، باسم الجنرال ديغول في جمهوريتي سوريا ولبنان.
1941	في أيلول، عيّن الشيخ تاج الدين الحسني رئيسًا للجمهورية.
1943	من رجال الحكم حسن الحكيم وجميل الألشي؛ تعيين محمد كرد علي رئيسًا لمجمع اللغة العربية – المجمع العلمي ووزيرًا للمعارف. حزيران 1943، تعيين عطا الأيوبي رئيسًا للدولة والحكومة؛ انتخابات عامة بعد توافق دول الحلفاء على استقلال سوريا ولبنان اثناء الحرب. آب 1943، زعامة وطنية للرئيس شكري القوتلي، ورياض الصلح في لبنان؛ تعيين القوتلي رئيسًا؛ إلغاء المادة 116، واسترداد صلاحيات الرئيس. 11 تشرين الثاني، أزمة لبنان؛ اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة؛ تضامن سوري عربي مع لبنان؛ اتفاق سوري لبناني فرنسي على نقل السلطات إلى الحكومتين السورية واللبنانية؛ مصالح سورية لبنانية اقتصادية إدارية مشتركة؛ تعيين الجنرال بينه P. Beynet ممثلًا للحكومة الفرنسية لنقل الصلاحيات وصياغة العلاقات.
1944	إعلان الحرب على المحور؛ ممارسة السيادة؛ سورية دولة مستقلة حليفة ولبنان أيضًا. تشرين الأول 1944، استقالة حكومة سعد الله الجابري، وتشكيل حكومة برئاسة فارس الخوري؛ إلغاء الاستقلال المالي والإداري لجبل الدروز وضمّه كليًا إلى الجمهورية السورية؛ إلغاء النظام المالي والإداري الخاص لمحافظة العلويين؛ تأسيس جامعة الدول العربية، وسوريا ولبنان عضوان مؤسسان مع مصر والعراق والعربية السعودية ثم انضمام شرقي الأردن واليمن.

1945	8 أيار 1945، انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ معركة الجلاء والصدام الاخير مع فرنسا؛ قادة معركة الجلاء في دمشق والمحافظات السورية. فرنسا ترفض الخروج قبل توقيع معاهدة مع سوريا ولبنان؛ المطالبة بالاستقلال بلا قيود ولا شرط؛ مظاهرات عمت شوارع سوريا ولبنان؛ موقف تشرشل الحاسم بإيقاف العدوان الفرنسي. 18 أيار 1945، رفض لبنان المطالب الفرنسية بجواب واحد بعد اجتماع حكومتي سوريا ولبنان في شتورا؛ دمشق بين سلطتين، القائد الفرنسي أوليفا روجيه Oliva-Roget. 29 أيار 1945، الجيش الفرنسي يقصف دمشق والمدن السورية ويضرب المجلس النيابي ومصرع عناصر حمايته من الشرطة السورية ووقوع اشتباكات؛ انشقاق الضباط السوريين عن القيادات الفرنسية في دير الزور وحماة ودرعا والسويداء وحلب؛ رفع العلم السوري بدلًا من الفرنسي على المواقع العسكرية في السويداء ودير الزور وحلب، بأيدي ضباط سوريين انضموا إلى القيادة الوطنية؛ تدخل بريطانيا عسكريًا، والدول العربية دبلوماسيًا؛ رسالة تشرشل الحاسمة إلى ديغول بطلب التوقف عن القصف وانسحاب القوات الفرنسية إلى معسكراتها.
1946	17 نيسان، المفاوضات الأخيرة على الجلاء، وخروج القوات الأجنبية من الجمهورية السورية من لبنان. تشرين الثاني، استقلال بلا معاهدة، بعد نصف قرن من النضال الشعبي الوطني، وهما جمهوريتان عضوان في الامم المتحدة، كان كلّ منهما مشروع دولة حديثة قبل ثمانين عامًا.

انتهت المواجهة الأخيرة مع الانتداب والاحتلال العسكري الفرنسي في 1945، بخروج القوات الأجنبية الفرنسية والبريطانية من سورية ولبنان، بقرار من الأمم المتحدة، وبقرار حاسم من قادة دول الحلفاء وجّه إلى الحكومة الفرنسية، وبمساندة دول الجامعة العربية الناشئة في ذلك الحين (أسست عام 1944 قبل تأسيس الأمم المتحدة).

ونظرًا لأهمية هذه التطورات في مقاومة الاحتلال والانتداب، أرى أن من الضروري تسليط الضوء على نضال الشعب السوري الشعبي والسياسي الوطني، في سبيل تحقيق الاعتراف باستقلال الجمهورية السورية وجلاء القوات الأجنبية، بالإضافة إلى التدخل الدولي الذي عمل على إيقاف

الحرب على الجبهة السورية، حين كانت الحرب العالمية ما تزال قائمة على جبهة الشرق الأقصى مع اليابان، ولم تتوقف حتى استخدام الولايات المتحدة الأميركية السلاح النووي بأمر من الرئيس هاري ترومان، في آب 1945. وهكذا يمكن القول إن سورية خرجت إلى الوجود على الساحة الدولية بعد صراعات دولية عالمية، وهي تعود مرة أخرى في خضمّ صراع دولي لم يُحسَم بعد، ويزداد تعقيدًا وخطرًا يومًا بعد يوم.

خاتمة

في نهاية المطاف، نضع بين أيدي الباحثين بعض المسائل المهمّة والنقاط المحورية، للبحث فيها وتسليط الضوء عليها، ومنها ما يلي.

العدوان الفرنسي على الدولة السورية: بعد موقعة ميسلون في 1920، خاض الشعب السوري صراعًا عنيفًا استمرّ أكثر من ربع قرن (1918-1946) لاسترداد الدولة السورية التي أرادت فرنسا ودول الحلفاء تقسيمها وتمزيقها، تحت ستار الانتداب الدولي الذي فرضته بالاحتلال الفرنسي العسكري. ونرى أن مسألة العدوان الفرنسي على الدولة السورية في ميسلون، وتهديم النظام الدستوري للبلاد، عدوانٌ غاشمٌ تجاهلَ كل القوانين والمبادئ الدولية المعلنة بعد الحرب.

مواجهة ادعاءات فرنسا: إن التاريخ يوجب أن يُسلَّط الضوء على جريمة القوات الفرنسية بالعدوان على قوة حليفة شاركت بالحرب إلى جانب الحلفاء بالحرب العالمية، لإقامة نظام عالمي يُبنى على مبادئ الحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها. وقد تكرر هذا العدوان المدان أخلاقيًا مرتين (1925) على دمشق، وقصف المجلس النيابي السوري في (1945)، وقتل حاميته من رجال الأمن والشرطة. فكيف لفرنسا أن تدّعي أنها حاملة مبادئ الجمهورية الفرنسية بالحرية والعدالة والمساواة؟

خرق القوانين الدولية وتخلي فرنسا عن مسؤولياتها: إن احتلال البريطانيين فلسطين وتسليمها للمهاجرين الأوروبيين المستعمرين الأوروبيين، وإسقاط الحكم الوطني العربي في سورية في ميسلون، ودخول دمشق في 1920، كلّ ذلك يمثّل تناقضًا فاضحًا وخرقًا للقوانين والأخلاق، ويدين قيم الحضارة الأوروبية الثقافية والجمهورية. ثم إن فرنسا لم تتحمل مسؤولياتها الدولية بالحفاظ على حماية الأراضي السورية وحدودها، وتصرّفت في رسم الحدود بما يخدم علاقاتها الدولية، بنقل السيادة على أراض سورية إلى دول مجاورة.

هذه بعض الحقائق التي ينبغي على الباحثين في التاريخ السوري المعاصر التوسع في دراستها وكشف تفصيلاتها. ونرى أن من الواجب إبراز نتائج النضال الوطني لاسترداد الاستقلال، بإرغام سلطة الانتداب الفرنسي على الاعتراف بوحدة أراضي الجمهورية السورية، وبإرادة الشعب بتقرير مصيره وتأسيس الجمهورية والدولة الوطنية الدستورية، بعد سنوات قليلة من العدوان في ميسلون، وذلك في إعلان الدستور الجمهوري الأول 1928، وبإرغام الاحتلال على الخروج من البلاد والجلاء في 1946.

إن سوريا، بلاد الشام التاريخية، ما زالت مقسّمة ومهددة بأخطار النظام الدولي والصراع الاستراتيجي المتفجر. ولذلك نرى ضرورة الإقرار بأن التاريخ علم إنساني اجتماعي-سياسي، له موضوعه الذي هو دراسة تاريخ المجتمعات الإنسانية على الأرض، وله مناهجه المبنية على شواهد ووثائق للكشف عن حقائق الماضي الإنساني، ويمكن الوصول إليها بالبحث العلمي الموضوعي، لدراستها بعقلانية وربطها بمجريات الأحداث في الحاضر والمستقبل، بغية تفهّم الأمور ودراسة السياسات، ووضع الخطط للعمل من أجل مصلحة الشعب بأيدي الشعب، ومن أجل تقدّم البلاد وازدهارها وضمان أمنها واستقلالها.

إن الوطن لا يتقدّم إلا بإعمال العقل وتحريك الفكر وبالتخطيط للعمل والبناء والتنمية المستمرة والتقدّم، في عالمٍ لا ينفكّ يتغير ويتزايد فيه التنافس والتزاحم والتسابق على الموارد والمواقع والحضور. والتاريخ -بصيغته العملية- هدفه كشف الحقائق وتنوير العقول، للالتزام بمصالح الشعب ولتقدير الظروف بحكمةٍ، لا تفريط فيها بالقيم الأخلاقية والتربوية والانتماء الوطني الجامع حول الدولة السورية الجمهورية الدستورية وقوانينها وقيمها الحضارية السامية ولسانها العربي المبين وتراثها الغني بثقافاتها وآمالها المستقبلية.

إن التاريخ الوطني الجامع، بمعرفته وتعليمه وإدراك معانيه وأهدافه، يشدّ وحدة الأرض والدولة والشعب، ويفرض لسورية موقعها على أرضها العريقة، ويردّ للشعب السوري مكانته التاريخية بين الأمم وفي تاريخ الإنسانية الحضاري.

المركز العربي لدراسات سورية المعاصرة
The Arab Center for Contemporary Studies